مخطوف

عن «أبو طارق» الذي مشى مع مسلحين حتى... اختفى: شممنا بطاقة هويته فلم نجد عليها رائحة القتل

ضحى شمس

الصدفة وحدها وضعت بين يدي أم طارق زوجة المخطوف شكيب ضاهر آخر صورة معروفة له. هذه الصورة هي التي ستتصدر صالون العائلة المنكوبة في حارة حريك، وصدر زوجته في تظاهرات اهالي المخطوفين منذ ما قبل تاسيس اللجنة حيث انها كانت بين اوائل الساعين الى معرفة مصير هؤلاء. تقول: «مرّ عليّ بعد ايام من خطف ابو طارق (١٧ ايلول ١٩٨٢) جارنا المصوّر سيد بو أنس مروة، وقال لي: يا ستي، مر عليّ ابو طارق منذ ايام وأراد ان اصوّره من اجل تجديد بطاقة المطبعة... ولا زالت الصور عندي...».

واذا كانت الصدفة ايضا، وسوء الحظ، قد اوقعا بالرجل بين يدي خاطفيه في ذلك اليوم المشهود في محيط السفارة الكويتية ومخيمات صبرا وشاتيلا، فإن هذه الصدفة لم يكن لها اي دخل في قرار الرجل للبقاء بالمنطقة، على الرغم من الاحداث الجسام التي اخافت غالبية المسيحيين المقيمين هناك، وبالتالي هجرتهم.

تقول زوجته: «ما كان يفل، جئت أنا حتى اقنعه بالذهاب معي الى قريتنا القليعة في الجنوب وقلت له: يا ابو طارق، اصهرتك يقولون انه عليك ان تخرج من هنا. فقال لي: لن اخرج من هنا، ولن اترك المطبعة، هذه المطبعة لي ولاولادي ولن اتركها لانني لو تركت، كما فعل الباقون، فإنها ستتوقف».

نسأل السيدة ان كانوا يملكون المطبعة، فتنظر إلينا كأننا أتينا من القمر: «لأ... تكنوبرس... مطبعة الحزب الشيوعي».

نسألها إن كان زوجها خطف لانه منتسب للحزب الشيوعي، فترد: «لا... لا... طارق ابني الكبير بالحزب، وزياد (اصغر منه) بالحزب... ابو طارق صديق بس»!!! لتردف: «زياد وطارق كانا مطلوبين فقط»... نسألها من قبل من؟ فترد: «من جماعتنا المسيحية... كانوا يقولون: «انو هيدا المسيحي اخو (...) شو قاعد يعمل بعد بحارة حريك؟ اصلا ما لازم يكون ساكن هون».

تشبه روايات الاهل عن مخطوفيهم، الروايات عن ما قبل الموت. تقول: «عندما خطف أبو طارق، لم نكن هنا ـ اقول دائما ابو طارق لان لساني لم يأخذ بعد على شكيب ـ جاء في المساء الى المنزل بعد ان مر على التعاونية لم يمر من طريق صبرا وشاتيلا ليعرف ان القتل والمصائب هناك. مر على تعاونية حارة حريك، اشترى بعض المعلبات وجاء عن طريق بير العبد. لم يكن احد يعرف بما كان يجري بعد. لم نكن هنا، كنا «مقبورين» بالجنوب لاننا رحلنا عندما دخلت اسرائيل. هربنا مع الاولاد الصغار على القليعة... لان احداً من الكبار لا يجرؤ على الذهاب الى هناك».

في المساء، دخل لعند الجيران وسهر عندهم. وفي الصباح، شرب قهوته مع جارنا العميد كنج، قال له هذا الاخير عندما نهض ليذهب: «بكير يا بو طارق شو صاير؟» فقال له: والله تعبت يا خيي يمكن آخذ فرصة... اما الآن، فيجب ان اتفقد الشغيلة في المطبعة لان المسؤولين كلهم فلوا».

تمسح أم طارق بأصبعيها جانبي فمها وهي تتفرس للحظة في صور امامها كمن يبحث عن المشهد التالي في قصة يرويها ولم يشاهدها. ثم تردف: «الساعة ٨.١٥ ترك «الزلمة» البيت. ولما وصل الى مستوى مستشفى عكا، التقى برفقاء له تحت جسر المطار، منهم فادي الزرقا الذي ساله ابو طارق: شو هيدا يا عمي؟ مبيّن في كتير ناس مصبّرة (واقفة) على الطرقات. يا ولدي، لم يكونوا على علم ان المجزرة اثناء ذلك كانت عم تفتك ـ فرد عليه الآخر قائلا: والله العلم عند ربك».

تكتف ذراعيها وهي تقول: «هالزلمة حامل هالمسبحة بيد وفي يده الاخرى كيس المعلبات النيلون. وحسب شهود، تقدم مسلحون من ابو طارق ووقفوا يتحدثون إليه. وقد رآه الشهود يمد يده الى جيبه ويستخرج هويته. عندها تركه اثنان من المسلحين واثنان آخران مشيا معه باتجاه السفارة الكويتية. عندها، علقت سيدة من آل المقداد، كانت تعرفنا: هذا ابو طارق عرفه المسلحون وتركوه يمر. لماذا نحن لا زلنا هنا؟ لم تكن تعلم... اما ابو طارق، فمشى مع المسلحين باتجاه السفارة الكويتية حتى... اختفى عن النظر... ولا يزال».

تسيل عيناها وتسكت لهنيهة، ثم تعبث بكمية الصور امامها كمن يفلّي عدساً. ثم تضيف: «حبة ملح وذابت! طبعا الكل يعلم من كان هناك، كانت الدنيا تعج عجا بشاحنات القوات والكتائب والاسرائيليين، بعد نهاية المذبحة، وجد احدهم هوية ابو طارق مجعكة ومرمية الى جانب تلة تراب، بالقرب من السفارة الكويتية. وقالت لي أم الاربعة (مخطوفين) أم عزيز انها رأته قبل ان يختفي وكان يلبس بنطلوناً بني اللون وقميصاً أزرق، بالعلامة (تقلد لهجة أم عزيز الفلسطينية) وسمعتهم يسألوه، فقال لهم: أنا لبناني، فقالوا له: أختك وأخت لبنان. ثم انتزعوا منه الهوية وجعكوها ثم رموها».

زوجة المخطوف شكيب أسعد ضاهر وبدا هو خلفها في صورة الحائط (حسن عمار)

بعد ذلك؟ بدأت دوامة التفتيش عنه: «احد المصورين الصحافيين كان موجودا ساعة لمّ القتلى والجرحى، وكان يعرفنا، رأى هوية ابو طارق وصوّرها، وقال لي ان اذهب لتقديم طلب مع «جماعة المخطوفين» في دار الفتوى. قال لي: من لم يقتل وليس جريحاً، يعتبر مخطوفاً».

ثم تقص علينا جملة الاخبار التي استنتجت منها انه ما زال حيا، في غوسطا تحديدا. وكيف ذهبوا الى جماعة سعد حداد ليتبينوا صحة كونه في معتقل انصار او اذا كان قد جرى نقله الى اسرائيل، وكيف نصحهم حداد باللجوء الى الصليب الاحمر للتأكد من كونه غير مقتول: «قال لنا، اذا كان قتيلاً سوف يعطونكم محتوياته (تريد متعلقاته) واذا لم يكن مقتولا فلن يكون عندهم محتويات».

بعدها عادت الى بيروت التي غادرها ابنها البكر لتقديم دعوى قضائية عبر الصليب الاحمر الدولي (!!!) وتستأنف: «قامت القيامة. ذهبت مع ابني جريس وبعض المحبين الى الصليب الاحمر، لم نكن قد عرفنا بالهوية بعد. وهناك اعطوني اياها وكانت في مغلف ابيض. وقالوا لي ان هذه المحتويات لم تكن مع القتلى. ثم اتوا بصندوق خشبي وعندما فتحوه فاحت رائحة قاتلة. وكان الصندوق ملآنا بمظاريف من النيلون مقفلة على اغراض هوية ومحابس. وسألت كيف لي ان اعلم انه الظرف لم يكن مع القتلى، فما كان من رئيس الصليب الاحمر «الاجنبي» الذي خرج من غرفة إلا ان اكد لنا ان اسمه ليس مع القتلى. ثم قال: لقد تفقدنا كل المعتقلات إلا معتقلات الكتائب في المنطقة الشرقية. وقال «انهم» وعدوهم بادخالهم الى هناك قريبا. وعندها سيستطيع الرد علينا. ثم سألنا ان كان احدنا «عامل دورة دفاع مدني» وعندما قلنا له ان كنّتي قامت بهذه الدورة سألها ان كانت قد شمت على الهوية رائحة قتيل. فقالت له لا. فما كان منه إلا ان جلب آلة ووضع التذكرة فيها «اخذها وجابها» ثم قال لنا: ليس قتيلا».

تسكت لتضرب بعد لحظة كفا بكف وتقول: «هيانا. شهور ونحن نركض من هنا الى هناك. طلعت روحي ونزلت مليون مرة، حتى توصلنا الى اهالي المخطوفين وعملنا لجنة كنت فيها مع وداد حلواني ومارسيل حنينه ومنى صنديد».

اما اكثر ما حزّ في نفس أم طارق فلقد كان تخلي المطبعة عنها في وقت الشدة الذي، لم يكن ليحدث لولا تفاني زوجها في عمله: «فور اختفاء الزلمة، اختفى المعاش وقطعوا عنا الضمان. انشالت الدنيا وانحطت وركض فلان وعلان، وفي نهاية الامر صاروا يعطونني ألف ليرة بالشهر. ومؤخراً زادوها الى... خمسة وعشرين ألف ليرة بالشهر!».

نسألها عن معنى الوجود المعلق لشخص لا هو بالحي ولا هو بالميت. فتقول بعد تنهيدة طويلة: «اكتر شي بيوجع يا بنتي... الحيرة. يا هل ترى ما زال حياً؟ يا هل ترى سيعود يوماً؟ ساعة تقولين: هو من يقرع الباب. وساعة تقولين: ربما كان قادما في هذا المصعد. ملبكة. يعني الموت اهون. بتعرفي انو خلص. صعبة الحيرة كتير لانك لا تعرفين الحقيقة. لان الحقيقة حلوة ولو كانت جارحة لكنها مريحة».

اما عن قناعتها العميقة فتقول دون تردد: «حي. لم نجد له جثة ولا اسما ولا اثرا. لماذا سأقول انه ميت؟ كل قتلى صبرا وشاتيلا عرفوا. حتى الذين كانوا على الطريق. الصحافي قال لي: قلبتهم كلهم يا خالتي. ضميري انو حي اخذوه ليعاقبوه ويعاقبونا ولذلك اخفوا عنا مصيره. يلا... هذه هي حياته المشحر: جنى... جنى وفي النهاية لم يستطع ان يرتاح. لأنو الفقير ما بيسعد».

وإن كان حياً فاين تظنه محجوزاً؟ تقول: «اكاد اكون متأكدة انه في اسرائيل، مع الذين سلمهم جعجع للاسرائيليين. اتذكرين الباخرة؟ هناك صورة نشرت في الصحف الاجنبية عندما وصلت الباخرة الى حيفا (تستخرج صورة بالاسود والابيض) انظري مليا. سأريك صورة ابو طارق التي اخذت له عند جارنا بو انس عشية خطفه. ولن ادلك عليه في الصورة بالجريدة. لكنني سأطلب منك ان تتفحصي الوجوه الماثلة فيها وتقولين لي، من قد يكون بينهم ابو طارق؟».

ننظر مليا الى الصورة، ثم نظن شبها مع احد الواقفين في الصفوف الخلفية، لكن مع لحية. نضع اصبعنا على الشخص في الصورة ونرفع عيوننا نحوها متسائلين، فتقول بهدوء غريب: «هو بذاته»!.